البحوث والدراسات

"الأنا" و "الآخر" في خطاب "اليمين المتطرف"

نقض أطروحة "الإلغاء" وتأسيس أطروحة "الأنا" الجمعية

مدخل معرفي/ ديني

الدكتور: حسن سعيد تلموت

مركز نهوض للدراسات والنشر
NOUHOUD CENTER FOR STUDIES AND PUBLICATIONS

All rights reserved © 2018

جميع الحقوق محفوظة © ٢٠١٨

الملخص:

- كثر الحديث في الآونة الأخيرة بين المتتبعين للعلاقات الدولية حول قضية تنامي الامتداد التأثيري لليمين المتطرف— خصوصًا - بأوروبا على مستوى اكتساح تشكيلاته الحزبية لاستطلاعات الرأي ، وكذا للانتخابات في بعض الأحيان؛ إذ تشهد اليوم القارة الأوروبية نموًّا متصاعدًا لقوى اليمين المتطرف ، على شكل موجة تجتاح بعضَ الدول الأوروبية ، ومنها: ألمانيا ، والمجر ، وسلوفاكيا ، والدنمارك ، وفرنسا ، والنمسا ، والسويد ، وبريطانيا. وقد تمكنت الأحزاب اليمينة في تلك الدول من جذب كثيرٍ من الناخبين إليها ، وبعضها تمكن من التأثير في المشهد السياسي.

مدخل:

كثر الحديث في الآونة الأخيرة بين المتتبعين للعلاقات الدولية حول قضية تنامي الامتداد التأثيري لليمين المتطرف — خصوصًا - بأوروبا على مستوى اكتساح تشكيلاته الحزبية لاستطلاعات الرأي ، وكذا للانتخابات في بعض الأحيان؛ إذ تشهد اليوم القارة الأوروبية نموًّا متصاعدًا لقوى اليمين المتطرف ، على شكل موجة تجتاح بعضَ الدول الأوروبية ، ومنها: ألمانيا ، والمجر ، وسلوفاكيا ، والدنمارك ، وفرنسا ، والنمسا ، والسويد ، وبريطانيا. وقد تمكنت الأحزاب اليمينة في تلك الدول من جذب كثيرٍ من الناخبين إليها ، وبعضها تمكن من التأثير في المشهد السياسي[١].

ويُدرج الباحثون فوزَ «دونالد ترامب» برئاسة الولايات المتحدة الأمريكية ضمنَ تجليات هذا التمدُّد الأفقي لخطاب اليمين المتطرف ، لكن هذا التأثير لليمين المتطرف لم يقتصر على أوروبا وحدَها ولا الولايات المتحدة الأمريكية أيضًا ، بل تمدد حتى بلغ أيضًا كلَّ منطقة تشترك مع الغرب مرجعياتها الفلسفية ، أو تتقاطع معه في نفس الظروف الاجتماعية والسياسية ، وأجلى مثال على ذلك تمدُّد اليمين المتطرف داخل «الكيان الصهيوني» باعتبارِه امتدادًا للغرب داخل بنية المنطقة العربية/الإسلامية.

١- الصراع لإلغاء «الآخر» جوهر خطاب اليمين المتطرف:

أ- في أوروبا:

لعل الرابط الذي يُرجع إليه الأكاديميون المراقبون للظاهرة سببَ انتشارها وتوسعها هو امتداد العداء لـ«الآخر» أيًّا كان هذا «الآخر» ، وإن كان هذا العداء يقع تبعًا لتنوع الأسباب ، فقد كانت تبريرات السياسيين اليمينيين الأوروبيين تتأسس على الخوف من تأثير «المهاجرين» على النسيج الاجتماعي والإثني للمجتمعات الأوروبية ، أدى ذلك إلى أن تعيش أوروبا اليومَ صراعًا

(١) لمى راجح ، جريدة الجمهورية الإلكترونية ، صعود اليمين المتطرف ومسألة اللاجئين ، دراسة منشورة بتاريخ ٨ فبراير ٢٠١٧.

أيديولوجيًّا بين تبني قيم الإنسانية في إيواء اللاجئين واحتوائهم ، وهذا ما تكفُله دساتير بلادهم ، وبين ازدياد عدد اللاجئين المترافق مع تصاعد الهجمات الإرهابية التي باتت تهدد الأوروبيين في عقر دارهم ، مثل هجوم شارلي إيبدو ، والجمعة السوداء في باريس ، وتفجيرات بروكسل ، وأحداث كولونيا في ألمانيا وغيرها[٢].

ب- في الكيان الصهيوني:

أما مبررات توسع اليمين المتطرف في «الكيان الصهيوني» حسب الباحث الفلسطيني المتخصص في الدراسات الصهيونية «صالح النعامي»؛ فهو لا يختلف عن الأسباب المسوقة أوروبيًّا لذلك ، حيث ينقل عن «الباحث والمؤرخ الإسرائيلي شلومو بن عامي ، الذي شغل منصبي وزير الخارجية والأمن الداخلي سابقًا)أنه يرى أن أهم الأسباب التي قادت إلى تعاظم اليمين الإسرائيلي وتراجع اليسار هو التغيرات الديموغرافية والإثنية التي طرأت داخل إسرائيل...).

ويشير بن عامي إلى أنه خلال العقود الثلاثة الماضية أسفرت التغيرات الديموغرافية عن تبلور ثلاثة قطاعات سكانية رئيسة داخل إسرائيل ، وهي: المهاجرون الروس الجدد ، والشرقيون ، والمتدينون»[٣].

وينقل صالح النعامي في دراسته أيضًا عن البروفيسور سامي ساموحا أستاذ علم الاجتماع السياسي في جامعة حيفا: أن سبب تنامي المد اليميني المتطرف في الكيان الصهيوني هو «الرغبة في التميُّز عن المهاجرين المخضرمين ، منوهًا إلى أنه يكاد يكون أمرًا مسلمًا أن يندفع المهاجرون الجدد لتبني المواقف اليمينية المتطرفة ، واتخاذ مواقف عنصرية من العرب للتدليل على إخلاصهم لـ«الوطن الجديد» ، على اعتبار أن المواقف العدائية من العرب يُنظر إليها كدليل على «الوطنية» ، مشيرًا إلى أن الذي يدلل على الرغبة في التمايز هو حرص المهاجرين الجدد على التطوع للخدمة في الوحدات المختارة والخاصة في الجيش الإسرائيلي ، عندما يحين موعد خدمتهم العسكرية الإلزامية. ويضيف ساموحا: «تبني المواقف المتطرفة هي الماركة الوطنية المسجلة في إسرائيل بالنسبة للمهاجرين الجدد»[٤].

٢ نفس المرجع.

٣ صالح النعامي ، كيف صعد اليمين وانهار اليسار في إسرائيل ، مجلة وجهات نظر المصرية ، عدد مارس ٢٠٠٩م ، منقول عن موقع وكالة فلسطين الإخبارية ، نشرته بتاريخ ٠٧ تموز / أبريل ٢٠٠٩.

٤ كيف صعد اليمين وانهار اليسارُ في إسرائيل. مرجع سابق.

والملاحظ على تمدُّد اليمين المتطرف في الكيان الصهيوني عمومًا هو أن مبرره الذي هو تنامي فلسفة العداء لـ«الآخر» يُنحت من منطقٍ عنصريٍّ يُعتبر بِنْيةً لا يمكن تفكيكها إلا نظريًّا من أجل الفهم ، وبيان ذلك أن مبررَ إيجادِ «الكيان الصهيوني» ذاتِه جوهرَه هو استهدافُ جماعة من الناس ، وتشريدهم بعيدًا عن بلادهم ، وتحويلُهم إلى جماعات لاجئين في بلدان العالم ، وتأسيس كيان سُمي دولةً على أنقاض دولتهم ، وبالتالي فهذه الفلسفة والفعل الإلغائي تفرض مستويين ضروريين في الفهم:

- **المستوى الأول:** لا يتوقع ممن يتبنى تلك الفلسفة **إيديولوجيًّا ومرجعيًّا** أن يملك الاستطاعة لتجزيئها؛ بحيث ينتقي خصومه ليصنفهم في خانة «الآخر» ، بل إنه يقع تحت وطأة ديناميةِ هذه الأيديولوجية ، بحيث يحتاج دائمًا إلى «آخر» يُناصبه العداءَ ويشعر تجاهه بالاحتقار ، وهنا تحضرنا مواقفُ مكونات هذا الكيان تجاه يهود الفلاشا الذين هاجروا إليه من أثيوبيا.

- **المستوى الثاني:** لا يُستغرب ممن يتبنى تلك الفلسفة **إيديولوجيًّا ومرجعيًّا** أن يستدعي أقصى مستويات العنف تجاه «الآخر» لإلغائه ، وإزالته؛ لأنه يتصور أن ذلك هو مبررُ استمراره وتمدده ، وهنا تحضرنا كل أشكال العنف في تاريخ الكيان الصهيوني ، ابتداءً من المجازر البشعة التي واكبت تأسيسَه ، وليس انتهاءً بحالات القتل الجماعية والفردية للمدنيين ، مرورًا بتعريض الجنود الصهاينة أنفسهم وعوائلهم للموت في اعتداءات على الآخر ، لا مبرر لها سوى ما ذكرنا من تحوُّل فلسفة الإلغاء للآخر إلى أيديولوجية دولة ومجتمع.

ت- في الولايات المتحدة الأمريكية:

إذ أحوَجَنا التدليلُ على النَّفَس العدائي للآخر في الخطاب اليميني المتطرف أوروبيًّا إلى استحضارِ قضية اللاجئين والإشارة إلى مركزية توظيفها في خطابه التأجيجي لمشاعر العداء تجاه الآخر ، وأحوجَنا في التجربة اليمينية الصهيونية إلى بيان مركزية «الغير» في تأجيجِ خطابات العداء تجاهه ، مهمَا كانت مسافة «آخرية» هذا الغير قريبةً من «الأنا» كما هو الحالَ مع «آخر» أشار إليه «شلومو بن عامي» مخالف فقط في المنطقة المهاجر منها ، كاليهود «الروس ، والشرقيون... ، و«آخر» أشار إليه سامي سموحا ، مخالف في الاعتقاد والانتساب العرقي كالعرب والمسلمين- فإن التدليل على سببية استدعاء خطاب العداء للآخر في توسيع مساحة انتشار اليمين المتطرف في أمريكا لا يحتاجُ سوى إلى إنصاتٍ لخطابٍ واحدٍ من خطابات الرئيس

الأمريكي الجديد «دونالد ترامب» ، للوقوف على مستوى شحنه بلغة الكراهية لغير «الغربيين» ، مهما كان انتماءُ هؤلاء الغير ، ومهما كان انتساب هؤلاء الغربيين.

وإن كان البروفيسور «هانس كوكلر» يشير إلى عمق خطاب الكراهية في الإنتاجات المعرفية والسياسية الأمريكية ، الاستراتيجية منها خصوصًا؛ حيث أصبح «الإسلام» من زوايا مختلفة معوضًا لصورة العدو القديمة التي يحاول الغرب من خلالها فرضَ هيمنته على العالم ، وهذا الوضع العالمي الجديد ، حيث يقدَّم «الإسلام» كخطر على الهوية الغربية وأمنها ، وتؤثر مباشرة على علاقة الإسلام والمسيحية في أوروبا.

وتُستعمل أطروحة «صدام الحضارات» لـ«صمويل هنتنكتون»[٥] كتبرير للإبقاء على الأحكام المسبقة. ويؤدي وجود عدد كبير من المسلمين - أغلبيتهم مهاجرون - أكثر فأكثر إلى رفضهم ، وفي غالب الأحيان إلى ردود فعل معادية لهم.

ويُقدَّم هؤلاء المسلمون على أنهم يشكلون خطرًا مستمرًّا على التضامن الاجتماعي والثقافي لأوروبا. وفي مثل هذه الظروف فإنه من الصعب جدًّا الحفاظُ على مناخ حوار وتعاون وتقويته[٦].

لتجلية القول ، فإن توسعَ انتشار «اليمين المتطرف» في العالم يبقى تبعًا لمستوى انتشار خطابه العدائي للآخر ، ذاك الخطاب الذي بلغ من قوته اليومَ أنه لم يعد يحتاج متبنُّوه ، ومروِّجُوه لبذل جهد في بناء «أيديولوجيات» تستهدف الإقناع للالتفاف على قطعيات الحداثة الغربية التي تبلورت ، في إطار شعارات تتمركز على فلسفة «الإنسانية» ومشاريع «أنسنة» العلوم ، التي تضمن الحقوق بعيدًا عن التمييز المؤسس على الأديان أو الأعراق.

بل صارت الشعبويةُ التي تعتمد خلطَ الأوراق وتهييجَ العواطف بالمقولات التحذيرية والتخويفية كافيةً لاستثارة قدرٍ كبيرٍ من العداء للآخر - بما هو آخر - تغلِّفه الآلة الدعائية لليمين المتطرف أحيانًا بغطاء «المهاجرين» ، الذين تتهمهم بأنهم يستهدفون في الآن المزاحمةَ على أرزاق السكان الأصليين ، ويستهدفون في الآجل تمييعَ هوية الغرب العرقية التي ظلت نقيةً لزمن.

---

٥ هنتنكتون ، صمويل ، «صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي» ، ترجمة د مالك عبيد أبو شهيوة ود محمود محمد خلف ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، الطبعة الأولى ١٩٩٩ميلادية.

٦ كوكلر ، هانس ، المسلمون والغرب من الصراع إلى الحوار ، ترجمة دكتور حميد لشهب ، منشورات TOP EDITION ، الطبعة الأولى ١٤٣٠ ه/٢٠٠٩ م ، ص: ١٢٨.

و«في هذه الحالة ، فإن إشعال المواجهة بين العنصرية الأوروبية من ناحية والأصولية الدينية من ناحية أخرى ، هو أقصر الطرق لخلق غطاءٍ يمكن توظيفُه سياسيًّا واقتصاديًّا ، لتخفيف الضغوط المتواصلة من المهاجرين المسلمين الذين باتوا يمثلون خطرًا على التوازنات الداخلية في المجتمعات الأوروبية»[٧].

كما أن الآلة الدعائية لليمين المتطرف تُغلفه في أحايين أخرى بغطاء «الإسلاموفوبيا» ، والتي تسعى لتحويله إلى حالة نفسية ممتدة على المستوى الأفقي؛ حتى تستغرق كلَّ طبقات الشعوب الغربية ، تغذي ذلك باتهامات مسبوكة للإسلام – من حيث هو بنيةً دينية نابتة خارج السياق الغربي – بالمسؤولية المباشرة عن الأحداث الإرهابية في العالم؛ إذ ينتشر في وسائل الإعلام الغربية الخلطُ بين الإسلام السياسي والأصولية الراديكالية ، وبين الأصولية والإرهاب والتطرف.

وسيكون من الاستثناءات الكبيرة أن يتمَّ الفصلُ بين الظاهرتين الأخيرتين في وسائل الإعلام الألمانية لغويًّا واستدلاليًّا ، فهنا لا يحكم فقط تأمل انتقائي ولكن أيضًا منطق نفسي يقوم على احتمالات الأسوأ.

فإذا كان من غير الممكن فصلُ الإسلام عن السياسة ، وإذا كانت السياسة متماهيةً مع الأصولية ، والأصولية مع التطرف ، فإن النتيجة المنطقية هي أن الإسلام في مجموعه يتوجَّب أن يتم ربطه بالعنف ، وبذلك يتحقَّق الربط بين الخطاب الإعلامي الحالي والأطروحة الشهيرة لـ«صامويل هنتنكتون» حول صراع الحضارات ، فـ[هنتنكتون] لا يدعي شيئًا آخر غير تناقض راديكالي وعنيف بين الإسلام والغرب»[٨].

وهنا لابد من البيان أن «اليمينية المتطرفة» ليست رهينةً بالغرب «أوروبية» أو «أمريكية» أو رهينةً بالكيان الصهيوني» الذي يُعد امتدادَ الغرب في منطقة البلاد العربية والإسلامية ، بل إن هذه اليمينية المتطرفة تتواجد وتتوسَّع حيث وُجد منطق العداء تجاه «الآخر» ، حيث يتساوى خطابُ اليمين المتطرف في المناطق المنوَّه إليها مع أفكار منظمات متطرفة (في بلاد المسلمين)؛ حيث يتلاقى الفكران في تصورات إدارة الصراع وترتيب أولويات السلام والحرب العالمي.

٧ سلامة أحمد سلامة ، حرب الكاريكاتورات وتحول الثقافات ، مجلة وجهات نظر المصرية ، العدد ٨٦ ، بتاريخ مارس ٢٠٠٦م ، ص٥.

٨ حافظ ، كاي ، ترجمة: رشيد بوطيب ، مجتمع الإعلام ، مجتمع المعرفة ، صورة الإسلام في الإعلام الألماني ، مجلة المنتدى ، العدد الأول ، ربيع ٢٠١٥م ، ص: ١٠٧/١٠٨.

ففي ظل هيمنة الفكر اليميني المتطرف على صياغة توجهات دولة عظمى فإن العالمَ سيكون بعيدًا عن مناخات التسامح والتعاون ، الذي يرقى بالحقوق والقيم الإنسانية إلى المستويات التي تُهيِّئ لمجتمع إنساني قيم العدل والسلام وحقوق الحياة الكريمة الآمنة»[٩].

وإذا كان للباحثين في العلوم السياسية أن يُقاربوا موضوعَ تنامي مد «اليمين المتطرف» في العالم عمومًا من زاوية أسبابه وآثاره السياسية ، ولعلماء الاجتماع أن يقاربوه من زاوية أبعاده السوسيولوجية- فإن المدخل الذي تحيزنا إليه لنقارب من خلاله هذا الموضوعَ في هذه الدراسة ، هو المدخل المعرفي الذي سنحاول من خلاله التغييبَ القصديَّ لمناقشة التجليات الواقعية لظاهرة «اليمين المتطرف»؛ مكتفين بما سردناه سلفًا. بل إننا سنُعرض حتى عن الإكثار من إيراد مصطلح «اليمين المتطرف» في ما يلي من هذه الدراسة ، في محاولة للنفاذ إلى عمق الظاهرة ، مناقشين ميكانزمها المركزي ، وهو تدبير العلاقة بين «الأنا» و«الآخر» على المستوى الديني بالخصوص.

ويزيد الأمرَ بيانًا التصريحُ بأنه من الصعب — فعلًا - الفصلُ بين المعرفي والأيديولوجي في نقد الأفكار التي لها تنزيل سياسي؛ حيث تكون في الغالب محلَّ جدل فيه مِقدار من هَيَجان العاطفة والوجدان ، أكبر مما فيه من مقادير النظر العقلي وموازنات التفكير[١٠] ، ولذلك فإننا سنعمل على تجاوُز الوقوف عند ظاهرة «اليمين المتطرف» بتجلياتها التفصيلية التحيُّزية في مجال السجال السياسي ، إلى تفكيك بنيتها الجوهرية ونواتها المركزية التي تُشكِّل المرجع المباشر لتجلياتها في الواقع.

ونقصد بتلك النواة والجوهر كل ما يتعلق بـ «العلاقة بالآخر» على مستوى بناء المواقف ، وتحديد الاتجاهات سعيًا إلى محاولة تأسيس فهم معرفي لفلسفة «اليمين المتطرف» ، **وتلك ملامح بداية القضية:**

---

٩ الفائز ، عبد الوهاب ، فكر اليمين المتطرف الأمريكي ٢من٢! موقع جريدة الرياض السعودية.

١٠ بوعزة ، الطيب ، نقد الليبرالية ، تنوير للنشر والإعلام ، القاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠١٣م/١٤٣٥هـ ، ص: ٩.

١- «الأنا والآخر» من تجليات القدر الرباني في الإنسان رؤية معرفية إسلامية:

إن مواجهة تمدُّد الأفكار اليمينية المتطرفة في العالم تفرض مركزيةَ البحث في موضوع العلاقات البينية؛ ذلك أننا بينَّا سلفًا أن المرجعية التي تتغذى عليها هذه اليمينية المتطرفة هي مرجعية تغذية العداء بين «الأنا» و«الآخر» ، مع أن التدبير القيمي السلمي لهذه العلاقات البينية تجد مبررها في قدر الإنسان ، هذا القدر الذي شاء الله — تعالى - أن يكون تجلِّيه الأعظمُ هو وجودَ الآخر وجودًا ملازمًا للذات ، وهي ملازمة اطّرادية محركها المركزي هو وجود الذات نفسها ، ومن ثم فإن أي استنكاف عن الاعتراف بالآخر هو في الحقيقة لا يعدو أن يكون دفنًا للرأس في الرمال؛ لأن أي تجاهل للآخر يسبقه معرفة بوجوده وإقرار بذلك ، ومن ثمَّ تتحول محاولة عدم الاعتراف بالآخر في حد جوهرها إلى اعترافٍ به أمام الذات ، وهذا أعلى مستويات ومقامات الاعتراف.

يحمل الإسلام أبناءَه على الإيمان بالتعدُّد في سياق الحياة ، ويدعوهم إلى فهم ذلك فهمًا يقينيًّا ، والتصرف بموجبه ، ومن ثم فإن القدر الذي قلنا أن الله — تعالى - شاء أن يكون تجليه الأعظم هو الاختلافَ والتنوعَ الإنساني ، نص عليه القرآن الكريم نصًّا صريحًا على الإجمال ، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[١١] ، ثم فصّل ملامحَه في مواطن عديدة من سُوَرِه؛ نذكر منها أربع مستويات صريحة:

- **أولًا:** اختلاف وتنوع في اللسان ، وتنوع في الصور ، وتنوع في الجغرافيا ، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢)﴾[١٢].
- **وثانيًا:** اختلاف وتنوع الثقافة والعادات والتقاليد... وتنوع في الاختيارات العقدية والمذهبية ، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[١٣] ، فقد سمى القرآن الكريم عادات الفراعنة وأعرافَهم التي صارت عندهم بمثابة قوانين «دينًا» وسلم لهم بذلك تسليمَ اعتراف بالوجود.

١١ سورة هود الآيتان ١١٨/١١٩.

١٢ سورة الروم ، الآية ٢٢.

١٣ سورة يوسف آية ٧٦.

- **وثالثًا:** اختلاف وتنوع من ناحية العقائد والشرائع ، والمذاهب الفكرية؛ حيث ينبه القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا على أن اختلاف الناس ممتدٌّ إلى هذا المجال وليس فقط مقتصرًا على ناحية اللون والعرق واللغة ، بل إن القرآن الكريمَ سعى إلى ترسيخ قناعة في أذهان المسلمين ، وهي أن الاختلاف في العقائد والاختيارات النظرية الكبرى في الحياة عمومًا هو أمرٌ طبيعي ، بل يؤكد القرآن الكريم أن هذا التنوع في هذا الباب عيْنه من عند الله تعالى ، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[١٤].

حتى إذا رسخت تلك القناعة وصارت مسلَّمةً فكريةً عند المسلمين سعى «القرآن الكريم» إلى أن يفرض على المؤمنين به بناءَ التسامح على أرضية قدَريَّة الاختلاف هذا في العقائد والمذاهب ، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[١٥].

- إذا أضفنا إلى ما سبق من تجلياتِ قدرِ الإنسانِ تجلِّيًا رابعًا: وهو شيء من الأثرة التي جُبل عليها - بحيث يستأثر الإنسانُ بتمجيد ما يخصه في مقابل تعدُّد ردود فعله تجاه ما يخص غيره!

قال تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[١٦].
قال تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[١٧].
قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾[١٨].
قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[١٩].

الإيمان بالاختلافات القدرية الأربعة السالفة كفيلٌ بأن يشكل في ذهن الإنسان معالمَ معادلة فلسفية اجتماعية معقدة تحتاج إلى مساهمة في الحل ، العنصر المجهول في هذه المعادلة والذي ينبغي توظيفُ المعطيات السالفة للبحث عنه ، يختصره لنا السؤال التالي:

١٤ سورة المائدة الآية ٤٨.
١٥ سورة يونس الآية ٩٩.
١٦ سورة الكهف ، الآية ٣٤.
١٧ سورة النمل الآية ٣٣.
١٨ سورة القصص الآية ٧٨.
١٩ سورة فصلت الآية ١٥.

-كيف يمكن إدارة العلاقات الإنسانية في ظل تنوُّعٍ إنساني فطري ، وانتساب إنساني لاختيار معيَّنٍ هو في ظاهره مقابلٌ موضوعيٌّ - إن لم يتصورٍ على أنه مناقض موضوعي - لاختيارٍ آخر لا يمكن إلغاؤه بأي شكل من الأشكال ، ومع الاستحضار الواعي للأثرَةِ التي جبل عليها الإنسانُ يتقوى إلحاحُ البحث في تقديم مساهمةٍ جوابية على هذه المعادلة الفلسفية الاجتماعية؟

٢- الدين وسؤال تدبير العلاقات بين «الأنا والآخر»:

يجزم الباحثون في العلاقات الدينية بأمر لم يعد يحتاج إلى تدليل — فيما يبدو لنا - وهو ملازمة الدين والتفكير الديني للإنسان حدَّ جزم أحدِ أعمدة الفلسفة التنويرية بأن «الملحد» نفسه أكبر من يفكر في الله ، بل إن هذه الملازمة تبلغ في مساحة العلاقات حدَّ الاختلاط الأكيد بعناصر الهوية المركزية ، وهذا التكوينُ المركزي لعناصر الهوية هو ما تتشكل منه «الأنا» التي تتعدد بتعدد الناس ، بل إن المتأمل في العلاقات الإنسانية يجد أن حتى الاختيارات الثقافية ، بل حتى الاختيارات المادية التي قد تبدو مصمتة غير معبرة عن خلفية معينة ، عند التدقيق تجد الانتماء الديني بارزًا فيها بقوة[٢٠]. من ثمَّ صار لازمًا مناقشةُ العلاقات بين «الأنا» و«الآخر» من زاوية «الدين» لزومًا لا مفرَّ منه.

إذا جنحنا إلى تخصيص الجواب على السؤال بالبحث المعرفي في الاختلاف الديني ، بكل ما تمدُّنا به المعرفة من أحكام تفيد أن الأديان تقدِّم أجوبةً قَبْلِية تحسم هذا الاختلاف حسمًا وهميًّا ، من قبيل امتلاك كلِّ «أنا» دينية لأجوبة نهائية على أسئلة الماهية المحيرة للإنسان: «من أنا؟ ومن أين؟ وإلى أين؟... ».

تلك الأسئلة التي تختصر الإنسان وماهيته ومصيره ، فإننا نجد بلا شك الأديان تقدم أجوبةً نهائية على هذه الأسئلة ، وتدعم أجوبتها تلك بأدلة؛ واقع الحال وقدَر الإنسان يجزمان بأن الناس يقفون حيالها موقفَ التنوع في الاقتناع بين التبني وبين الرفض ، فالمتبني يعتبر تلك

٢٠ انظر مثلًا إلى شكل بناء الغرف المخصصة للضيوف في المنازل عند المسلمين تجدها في غالبها منحازة إلى مساحة غير مخالطة لعموم المنزل إذا كان هذا واسعًا ، وتكون في زاوية لا تسمح بالإطلال على فناء البيت متى كان البيت ضيقًا ، وما ذلك إلا لخلفية دينية تحث المسلمين على الحياء وعدم تكشف أهل البيت - وخصوصًا النساء - على الغرباء ، وهو ما يستبعد حضوره في ذهن مهندس البيت إلا إذا كانت الخلفية الدينية متجذرة في تكوين هويته ، وقل مثل ذلك على كثير من الإنتاجات المادية الأخرى.

الأجوبةَ من صميم عناصر الهوية ، وبالتالي فإنها تعبر عن تجلي «الأنا» في هذا العالم ، هذا «الأنا» الخاص الذي يكون بدوره مع غيره ممن يشترك معه التبني عناصر «الأنا» الجمعية ، في مقابل «الآخر» وهو كل من يرفض تلك الأجوبة ، ويقتنع بغيرها.

ولما كانت «الأرض» — دون غيرها من الكواكب - مكان عيش النوع الإنساني بتنوع أديانه ومذهبياته ، فإن مسألة إدارة العلاقات بين أفراد النوع الإنساني تزداد إلحاحًا ، وواقعية. إذ كيف يمكن أن يحتمل «الأنا» وجودَ «الآخر» إلى جانبه؟ تتداخل تفاصيل عيشهما ، وتتقاطع مصالحهما ، بل يبلغ مستوى الترابط أحيانًا حدًّا لا تستقيم حياة «الأنا» إلا بوجود هذا «الآخر» إلى جانبه!

٣- الاختلاف الديني ونقاش معرفي لأطروحة «إلغاء الآخر»:

تعد **أطروحة «إلغاء» الآخر**، من الأطروحات التي تسعى بعض الاجتهادات المنغلقة ، المؤسسة على فهم لنصوص الأديان إلى الترويج لها وتسويقها ، على خلفية أن الأديان جاءت ليلغي بعضُها بعضًا عبر مواجهة دموية لا يصمد فيها الأكثرُ إقناعًا ، وإنما يكسب جولاتها الأكثرُ امتلاكًا لأسباب القوة ، وتتنزل هذه الرؤية على مستوى التنظير ، لتصبح حالًا يعيشه الأفراد. في مثل هذا يحكي «إسرائيل شحاك: «فقد شهدت يهوديًّا متعصبًا أبى استعمالَ هاتفه يوم السبت لاستدعاء سيارة إسعاف لإنقاذ شخص غيرِ يهودي انهار في إحدى ضواحي القدس القريبة»!!![٢١].

ويُجلي «إسرائيل شحاك» الخلفية التنظيرية لهذا السلوك الإلغائي المستمدة من النسق الديني ، فيقول: «وعوض نشر هذا الخبر في الصحف ، اجتمعتُ — بطلب مني - مع عدد من أعضاء المحكمة الدينية في القدس ، وهم حاخامات تعينهم الدولة ، وسألتهم عما إذا كان هذا التصرف يتفق مع تفسيرهم لتعاليم الديانة اليهودية ، فأجابوني بأن هذا اليهودي كان مصيبًا في تصرفه ، وتقيًّا ، مدعمين رأيهم بفقرة من مختصر معتمد للشرائع التلمودية كتب في هذا القرن»[٢٢].

وهذه الرؤية الإلغائية التي نقلنا مثالًا تنظيريًّا وتنزيليًّا لها ، تحولت بالفعل إلى فلسفة عامة تؤطر العلاقةَ بين أبناء الأديان المختلفة؛ سواء كان هذا الإلغاء من جهة واحدة كما

٢١ شحاك ، إسرائيل ، اليهود واليهودية وطأة ٣٠٠٠ عام ، تقديم إدوارد سعيد ، وغور فيدال نشر: الملتقى ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ ص:١٨.

٢٢ اليهود واليهودية وطأة ٣٠٠٠ عام ص:١٨ ، ١٩.

عليه الصورة في حرب الإبادة «المادية والرمزية» من طرف «الكيان الصهيوني» تجاه الأفراد والرموز الثقافية والحضارية للإسلام والمسلمين في «فلسطين» ، وكما عليه الحال في حروب الإبادة التي شنها «الصرب» ، المسيحيون «الأرثوذوكس» تجاه المسلمين في «البوسنة والهرسك» أوائل القرن الماضي ، وكما يبدو عليه الحال في حرب الإبادة التي يشنها «البوذيون» اليوم على مسلمي «بورما» مما صار لا يخفى بتواتر أخباره عبر وسائل الإعلام المختلفة. أو كان حربَ إلغاء متكافئة ، يقوم فيها كلُّ طرف بدوره في إنكار وجود الآخر من حيث الأصل ، ويهدف إلى إزالته.

ولأن موازين القوى «المادية» غير متكافئة اليوم على الصعيد العالمي؛ إذ تتمركز في يد واحدة معلومة ، فإن معركة الإلغاء المتكافئ جوانبها ، لا تتمُّ اليوم إلا في «العالم الرمزي» أي أنها تُخاض في مرحلة «التنظير» فقط ، وأحيانًا تتجلى في عمليات فردية تنفيسية. فإلى جانب التسويق الإعلامي في الضفة الشمالية لحوض «البحر الأبيض المتوسط» لخطاب من قبيل «صدام الحضارات» و«نهاية التاريخ والرجل الوحيد»...تنتشر في ضفته الجنوبية بشكل متنامٍ خطابات من قبيل: كراهية الكفار ومقاطعتهم ، وتبرير الاعتداء عليهم.

ولا يخفى ما للإعلام الغربي ، من دور في تغذية مثل هذه الرؤى «فالغرب يكثر من الحديث عن «الإرهاب في الإسلام» ويضخمه: من حالة «أبي سياف» إلى حالة «أسامة بن لادن» ، وأي تحرك فيه أخذ بالعنف ، أو ممارسة له ، أو تنظير له ولو بالخطاب ، يوضع تحت المجهر الإعلامي الغربي»[٢٣].

أمام معارك الإلغاء هذه التي تصادم قدر الله في خلقه ، ذاك القدر الذي صنفه الناس بفطرهم وعقولهم في خانة «الملازمة للإنسانية» ، لن توصل أبدًا إلى اجتثاث طرف لطرف ، إطلاقًا. على اعتبار أن إنسانية الإنسان — وهي الوعاء الجامع للتنوعات السالفة البيان - تلزم صاحب كل دين وعقيدة باحترام خصوصيات غيره الدينية والعقدية.

الأمر الذي فرض على هذا «الإنسان» أن يبحث عن صيغ للعلاقة تتماشى مع خصيصة «الإنسانية» الجامعة ، وفي ذات الآن تتسق مع مساحات الخصوصية اللازمة لطبيعة «الأنا» التي نوهنا إلى أنها مجبولةٌ على نوع من «الأثرة» و«النرجسية».

---

٢٣ المقرئ الإدريسي أبو زيد ، الغلو في الدين ، المظاهر والأسباب ، منشورات الزمن ، الكتاب التاسع والعشرون الطبعة الأولى ٢٠١٠م ص: ٦٨.

٤- جهود دعم لثقافة التعايش بين «الأنا» و«الآخر» نحو تأسيس لـ«أنا» مشتركة، مدخل معرفي:

لِما سبق صار لازمًا على المشاريع العلمية القيامُ بجهود معتبرة للتأسيس لثقافة التعايش، والتوافق، تلك الثقافة التي تعتبر «الأنا» حيِّزًا له قيمتُه الإبداعية التي يُمكنه أن يساهم بها في خلق مساحة وسط بالاشتراك مع «الأنا» الغيرية التي تمثل بالنسبة إليه «آخر»، فتتحول هذه المساحة الوسط إلى «أنا» جديدة، من أهم معالمها أنها لا تعتدى على خصوصيات «الأنا» الفردية، التي على رأسها «العقائد»، لكنها تسمح ببناء مساحة «الأنا» الجمعية التي يمكن أن نصطلح عليها «المشترك الإنساني».

ولقد تعددت المشاريع العلمية التي حاولت مقاربة العلاقات الإنسانية من هذه الزاوية، وما ينبغي لنا هنا السعي للإحاطة بها - لوفرتها بكثرة - لكننا نقتنص بعضها للتمثيل، عامدين إلى تنويعها من كتابة عالم مشتغل بتراث المسلمين، إلى كتابة عالم مشتغل بتراث المسيحيين، إلى كتابة عالم مشتغل بتراثِ اليهود، للتوجيه والتمثيل، ومن ثم سنحاول الوقوف باختصار على أهم ما ورد في تلك المشاريع العلمية الثلاثة في ما يأتي، محاولة منا لتَبَيُّن إمكان تأسيس معرفة جامعة —على المستوى التنظيري على الأقل- ابتداءً من مساحة التنظير العام، إلى مساحة التبرير المعرفي لأحداث التاريخ التي يغذي بها «اليمينَ المتطرف» نزعاتُ العنصرية والكراهية داخل الأنا، إلى مساحة الاقتراح لمعالم المشترك الإنساني المراد بناؤه.

وقبل الخوض في مضامين النقاش وجب أن نُبيِّن أنه إنما اخترنا المشاريعَ الثلاثة المراد الوقوف عليها لاعتبارات نُلخصها في ما يلي:

- أنها مشاريع وفية **لمنهج التحليل الديني**، مما يعني أنها تمتح مباشرة مما سلف، وبينا أنه العنصر الجوهري في تكوين الهوية/«الأنا» وهو الدين.
- أنها **مقاربات معرفية**؛ إذ إنها بحوث أكاديمية محكمة، مما يعني أنها تفي بغرض **التأسيس المعرفي** للاقتراحات المستنبطة من مرجعية دينية، بعيدًا عن الجدل السياسي اللحظي المرتهن لردود الأفعال من جهة، ولا للصخب الأيديولوجي المنفعل بنداءات الانتماء المتعصب، البالغ أحيانًا حدَّ الطائفية المقيتة.

- أنها لباحِثين؛ يحتل أولهم موقع القيادة في هيئة علمية عالمية تمثل علماء المسلمين، ويعترف الثاني في كتاباته بالانتساب العالم والواعي إلى المسيحية، ومشهود للثالث بالاعتزاز بيهوديته، مما يعطي مشاريعهم قوةً اقتراحية تعزيزية لطرح إمكان التدبير للاختلاف على أرضية دينية، عكس ما يروج له أنصار الرؤية اليمينية المتطرفة في كل دين.

أ- علي محيي الدين القره داغي: نحن والآخر دراسة فقهية تأصيلية[٢٤]:

الجهد الذي بذله الأستاذ الدكتور «علي محيي الدين القره داغي» في كتابه الموسوم بـ«نحن والآخر دراسة فقهية تأصيلية» سعى في أوله إلى التنبيهِ على أن تقوية خصوصيات «الأنا» -التي سماها «الذات»- يساهم في بناء العلاقات المشتركة لا تقويضها، ثم انطلق إلى الكشف عن الأُسس الفكرية التي يتأسس عليها القبول بالآخر في الإسلام، وبعد تَعداد هذه الأسس يمضي «القره داغي» في مساجلة مزجت بين الاستنطاق التاريخي للتجربة النبوية، وبين الاستمداد من النصوص القرآنية والسنية، لطبيعة العلاقة اللازم قيامها بين «المسلمين وغيرهم في حال «السلم»، كما في حال «الحرب».

تلك العلاقة التي قامت على تنزيل «الرسول» ﷺ لنصوص «القرآن الكريم» التي احترمت آدمية غير المسلمين، واحترمت انتسابهم لدار الإسلام بمقتضى عقود «الذمة» و«الأمان» التي هي مواثيق واجب على المسلمين احترامها، كل ذلك في حال السلم، كما أنه في حال الحرب لا تختلف طبيعة الرؤية القرآنية والسنية لطبيعة العلاقة الإيجابية بين «المسلم» وغيره، إذ سبقت نصوص الإسلام مواثيق «القانون الدولي الإنساني» في احترام «الإنسان» وطبيعته، وذلك بوضعه مبادئ مهمة أثناء الحرب وبعدها.

ومضى الباحث بعد ذلك في تحديدِ واجبات وحقوق «الأقلية المسلمة» في البلاد غير الإسلامية، ليعقب هذا التحديد بالتأصيل لها من خلال نصوص «القرآن الكريم» والتجربة التاريخية للجماعة الإسلامية الأولى.

---

٢٤ علي محيي الدين القره داغي، نحن والآخر دراسة فقهية تأصيلية، سلسلة قضايا الأمة، منشورات «الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين»، بدون تاريخ ولا رقم طبعة.

وفي الختام ينقض الدكتور «القره داغي» الأسسَ التي يَبني عليها «الفكرُ الغربي» اليومَ رؤيتَه للعلاقة مع الإسلام ، والتي خلاصتها «الصراع» فكرًا وتنزيلًا ، ويبين أن الأسس السليمة التي ينبغي — من وجهة نظر الإسلام - إقامة العلاقات الإنسانية عليها هي «التدافع البناء» ، و«التَّحَاور الهادف» ، و«التعايش بدل التصادم». كل هذا على قاعدة «الدفع بالتي هي أحسن».

ب- روجي أرنالديز: ثلاثة رسل لإله واحد[٢٥]:

- في نفس سياق نشر ثقافة المشترك الإنساني ، يكتب «روجي أرنالديز» كتابه «ثلاثة رسل لإله واحد» الذي يبدؤه بالتبرُّؤ من «النزعة التلفيقية أو التوفيقية المتسرعة ، التي يعدها انحطاطًا للفكر؛ لأنها تروم تجاوزَ الاختلافات العقدية وإلغاءها ، والتي من مظاهرها اليوم «الاعتقاد بأنه ما دام الله واحدًا فإنه لا وجود لتعدد الرسالات ، وبناءً عليه فإن كل نقاط التعارض تبقى خارجة عن الوحي الحقيقي ، وحصْرَ الأديان في ما هو جوهري: وجود إله واحد ، هو الرب وخالق كل شيء...»[٢٦].

إن تبرؤ « روجي أرنالديز» من فكرة وحدة الأديان» أو النزعة التلفيقية ، ليس المراد منها فقط كسبَ أتباع كل دين بطمأنتهم على تحيزاتهم العقدية فقط ، وإنما الأمر أبعد من ذلك؛ حيث إنه يحقق نتيجة أن الذوات المكونة للأنا والآخر ينبغي أن تبقى على حالها ، منفردةً لتتلاقح عطاءاتُها في مساحة ما سميناه بالأنا الجمعية.

بعد التبرُّؤ من فكرة وحدة الأديان على مستوى الاستهداف وإمكان التحقق الواقعي ، يمضي «أرنلديز» في ما يُشبه التحقيب التاريخي لفلسفة «تكامل» الرسالات الدينية «لليهود» امتياز السبق ، إذ يظل الكتاب المقدس وسيظل من وجهة نظر تاريخيةٍ هو المصدرَ الوحيد ، ومن وجهة نظر عقديةٍ مرجعيةً دائمةً.

إن الإله الواحد ، الإله الأول الذي عبده البشر بطريقة واضحة وصريحة ، ذلك هو إله اليهود ، وإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب. تتموضع المسيحية كاستمرار مباشر لليهودية؛ فإن إلههم هو الإله الذي تجلَّى لإبراهيم وإسحاق ويعقوب. ويؤكد الإسلام على وجود إله واحد ،

٢٥ أرنالديز ، روجي ، ثلاثة رسل لإله واحد ، ترجمة: سعدي رشيد ، نشر: إفريقيا الشرق ، طبعة ٢٠١٢م.

٢٦ ثلاثة رسل لإله واحد ، ص:٢١.

هـو الخالـق يشـمل خلقـه بالعنايـة ، قـادر علـى كل شـيء...»[٢٧].

لا يعنيـني هنـا تفاصيـل الأفـكار ، فإنهـا متلبِّسـة ببعـض مـا لا يسـتطيع منتسـبٌ لديـن تجريـدَ نفسـه منـه ، لكـن الـذي يعنيـني مـن الأمثلـة السـالفة محصـورٌ في المسـتوى المنهجـي؛ حيـث يـدلُّ جهـد «أرنلديـز» بتحريـه لرؤيـة الأديـان الثلاثـة «اليهوديـة والمسـيحية والإسـلام» في قضيـة الألوهيـة ، علـى أن الأصـلَ في المسـاجلات الدينيـة هـو التعايـش لا التنافـر ، حتـى علـى المسـتوى البحثـي ، فكيـف إذا أدى هـذا المسـتوى إلـى اكتشـاف إمكانيـة التقـارب أو التطابـق في كثيـر مـن القضايـا.

«ومـن جهـة أخـرى فـإن النصـوص المقدسـة تحـذِّر مـن الرغبـة في رؤيـة اللّه ، فيمـا يخـص هـذه النقطـة ، فـإن «الكتـاب المقـدس -بعهديـه- والقـرآن يتفقـان رغـم الاختلافـات في التعبيـر....»[٢٨]. وتعـد المناهـج الصوفيـة — حسـب روجـي أرنالديـز - مجـالًا قويًّـا تظهـر فيـه إمكانيـة النسـج علـى منـوال التقـارب لا التنافـر ، والوحـدة لا التشـظي ، «مـن الممكـن أننـا لم نحتـرم تمييـزًا مهمًّـا ، عندمـا لاحظنـا أن الرسـالات الثـلاث تخاطـب القلـب ، وأن حيـاة القلـب هـي أساسًـا حيـاة صوفيـة الديانـات الثـلاث.

إذا مـا نحـن ركزنـا اهتمامنَـا علـى هـذه النقطـة ، فـإن الرسـالات في صياغتهـا المتعارضـة ليسـت هـي مـن تحتَّـل المقـام الأول ، بـل الطريقـة الـتي يتمُّ تلقيهـا ثم عيشـها مـن طـرف متلقيهـا ، هنـا ربمـا سينكشـف نـوع مـن التوافـق ، أو بالأحـرى فـإن ثمـة توازيـات ستتشـكل ، وثمـة تماثـلات سـتتراءى لنـا»[٢٩].

البحـث عـن التوافقـات والتوازيـات بـين الرسـالات الثـلاث قـد تُحيـل عليهـا التجـارب الإشـراقية للمتصـوف[٣٠].

«في ختـام هـذا البحـث يبـدو لنـا واضحًـا أن الرسـالات التوحيديـة الثـلاث تتوجـه كلهـا نحـو تأسـيس نزعـة إنسـانية ، تمثـل عبـر تنوعـات عديـدة وجهًـا أصيـلًا لأنهـا عملـت علـى الرقـي بالقيـم

---

٢٧ ثلاثة رسل لإله واحد ، نفس المرجع ص٢٤ -٣٤.

٢٨ ثلاثة رسل لإله واحد ، ص٨٧.

٢٩ ثلاثة رسل لإله واحد ، ص٩٠.

٣٠ مرة أخرى أكرر أن المضمونَ الذي قد يكون لي عليه شيء من التحفظ لا يلغي الرؤية المنهجية للبحث التي تروم الدفاع عن المشتركات الدينية/الإنسانية ، كوسيلة لتدبير التعايش بين أتباع الأديان المختلفة.

الرُّوحية المتعلقة بالإنسان ، في وضعه في العالم ، وفي علاقته بالله»[٣١].

هكذا يختم «أرنليز» بحثه «ثلاثة رسل لإله واحد» بقاموس مشحون باصطلاحات تجميعية «الأديان التوحيدية الثلاثة» الساعية إلى تنمية «النزعة الإنسانية» من أجل الرقي بـ«القيم الإنسانية». إنها محاولة علمية للتأسيس للمشترك عوضَ المفرِّق.

ت- إسرائيل ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام[٣٢]:

- يمكن تصنيف المنهجية التحليلية لبعض الأحداث التاريخية المتعلقة بتاريخ اليهود في بلاد العرب ، والتي اعتمدها الباحث اليهودي الدكتور «إسرائيل ولفنسون» في أطروحته للدكتوراه التي سماها «تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام» داخلة في سياق تأصيل ثقافة التعايش ، والبحث عن القيم الإنسانية المختبئة داخل تفاصيل التاريخ.

يقول «إسرائيل ولفنسون» عن الأهمية الاستراتيجية لاختيار مثل هذه المواضيع للدراسة: «إن البحث في تاريخ يهود الجزيرة العربية أهمية عظيمة في حل المشكلات التي يتخبط فيها كثير من الناس ، وإماطة اللثام عن لهجات العرب ودياناتهم وعاداتهم ، لما بين اليهود والعرب من رابطة الدم ، ولما بين اللغة العبرية واللغة العربية من التشابه والاقتراب»[٣٣].

وهذا يعني دعوة صريحة من المؤلف إلى الاعتماد في الدراسات الأكاديمية على المقاربات التي تبني على التقارب وتمتين الروابط وليس العكس ، وللمصداقية فإن مساحة أطروحة «الباحث اليهودي» — في غالبها - ظلت وفيةً لهذا المنهج؛ إذ بالرغم من تناوله لموضوع فيه من الحساسية ما فيه ، إلا أنه ما فتئ يجتهد في البحث عن تبريرات مقنعة لبعض الأحداث ، تحيد بها عن الانطباع الأولي الذي يمكن أن يتبادر إلى الذهن بكونها تعبر عن اعتداءات مثلاً ، ونأخذ للاستدلال على هذا جهوده في تفسير مبررات غزو النبي ﷺ لـ«بني النضير» ، فيقول: «أنذر النبي بني النضير بأن يخرجوا من آطامهم وينزحوا من يثرب في مدة عشرة أيام

٣١ ثلاثة رسل لإله ، ص٢٢٢.

٣٢ ولفنسون ، إسرائيل ، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، مكتبة النافذة ، الطبعة الأولى: ٢٠٠٦م.

٣٣ تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، ص: ٨٠.

ولكنهم رفضوا الإذعان لهذا الإنذار. وكان إنذار الرسول لهم بمثابة انتقام منهم على عدم اشتراكهم في واقعة «أحد» ، كأن الرسول كان يعتبرها كغزوة موجهة إلى مدينة يثرب ، فكان على بني النضير أن يخرجوا للقاء العدو كما تقتضي شروط المعاهدة»[٣٤].

مضمون الكلام السالف يحيل على أن الرسول ﷺ إنما أعمل القانون في مواجهة أناس تلبسوا بالخيانة لميثاق ومعاهدة موقعة معهم ، وهذا عدل في جميع الشرائع والقوانين الإنسانية.

ويزيد «إسرائيل ولفنسون» بيان ذلك حين يقارن بين هذا الإجلاء لـ«بني النضير» وبين مسالمته لـ«بني قريظة» في نفس السياق: «ثم يظهر أن بني قريظة كانوا مرتبطين بعهد آخر غير عهد بني النضير ، وأن الشروط كانت غير شروط عهد بني النضير؛ إذ لم يطالبهم الرسول بالاشتراك في واقعة أحد كما طالب بني النضير ، ولم يثأر منهم بحجة مخالفة الشروط كما ثأر من بني النضير. وليس معقولًا أن يغضب الرسول من بني النضير لعدم خروجِهم إلى الوغى في واقعة أُحُد دون أن تكون هناك معاهدة تلزم الفريقين بتنفيذها»[٣٥].

في نفس السياق يجتهد «ولفنسون» في نفي إمكان أن تكون الرواية التي تقول بأن النبي ﷺ إنما أجلى «بني النضير» عن «يثرب» لأنهم حاولوا اغتياله: «لأننا لو سلمنا بصحة هذه الرواية فإننا لا نجدها كافيةً لإشهار الحرب على جميع بطون بني النضير؛ إذ نعلم من نصِّ المعاهدة الكبيرة بين الرسول واليهود أن كلَّ جُرم من جهة فرد أو عدة أفراد يقع عقابه على فاعليه ، وأهل بيتهم ، دون أن يمس غيرهم بشيء من الأذى»[٣٦].

وأنقل عن «ولفنسون» نصًّا آخر قبل التعليق: «وقد أراد بنو النضير أن يذعنوا لحكم الرسول ويجلوا عن يثرب ولكن رهطًا من بني عوف بن الخزرج ، منهم عبد الله بن أبي ووديعة بن مالك وسويد وداعي ، قد بعثوا إلى بني النضير أن البثوا وتمتعوا ، فإنا لن نسلمكم ، إن قتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، وقد طلب بنو النضير من بني قريظة أن ينجدوهم فلم يفعلوا ، وصرح كعب بن أسد زعيم بني قريظة أنه لا يريد أن ينقض حلفه مع الأنصار».

---

٣٤ تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، ص:١٦٠.

٣٥ المرجع السابق.

٣٦ تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، ص:١٦١.

ويشير القرآن إلى غدر عبد الله وقومه يهود بني النضير بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾[٣٧].

إن الجهد الذي بذله «إسرائيل ولفنسون» لبيان المبررات العقلانية والإنسانية لبعض مواقف النبي ﷺ من «اليهود» في زمنه ، تساهم فعلًا في تحييد القراءات المغرضة للأحداث التاريخية ، تلك القراءات التي تستدعي الأحداث وتسقط عليها الحالات النفسية المشحونة بالحقد تارةً والانحياز تارات أخرى ، لتخلق في الأخير واقعًا من الكراهية والمصادمة ، عوض المساهمة في التأسيس لثقافة التعايش والتعاون.

يزيد الجهد الأكاديمي لـ«ولفنسون» قيمة كونه صدر فعلًا عن رجل يهودي «معتز بيهوديته»[٣٨] ، يرصد «رامي الجمل» بعض معالم اعتزاز «إسرائيل ولفنسون» بيهوديته:

«لقد كان ما جُبِل عليه ولفنسون من حُب ديانته ورؤيته إياها في أعلى درجات السمو والرفعة ، ما جعله يذود عنها ذودًا اضطره — على غير وعي منه- إلى مهاوي المغالاة والشطط. فنجد هذا حاضرًا في كتبه عن موسى بن ميمون وكعب الأحبار»[٣٩].

ولن نجد عناءً كبيرًا لنستنتج من تفاصيل خطاب «ولفنسون» أنه على يهوديته ، لكنه في نفس الآن يحترم الأديان الأخرى التي يتحدث عنها ، ومنها «الإسلام»؛ إذ إنه وإن كان لا يُتبع ذكر «النبي/الرسول» بالصلاة عليه — وهي من البديهيات في خطاب المسلم - إلا إن الاحترام الذي هو تجلٍّ لثقافة القبول والتعايش يظهر في نسبة «محمد» ﷺ إلى الرسالة ، وعدم الاكتفاء بذكر اسمه على عادة المستشرقين ، كما أن نسبة النصوص المستشهد بها إلى «القرآن الكريم» ، والإقرار له بصفة «الكرم» ، رغم عدم التصريح بكون تلك الآيات من كلام الله - سبحانه وتعالى- يوحي بالاحترام التام مع الاحتفاظ بالمساحة الخاصة الفاصلة بينه وبين الاعتقادات التي لا تعبِّر عن قناعاته.

---

٣٧ سورة الحشر آية ١٢.

٣٨ إسرائيل ولفنسون: اليهودي التائه والمستشرق الأريب ، رامي الجمل ، مجلة التسامح عدد ٢٦ ربيع ١٤٣٠ هـ /٢٠٠٩م .

٣٩ إسرائيل ولفنسون: اليهودي التائه والمستشرق الأريب ، رامي الجمل ، مجلة التسامح عدد ٢٦ ربيع ١٤٣٠ هـ /٢٠٠٩م .

في مشاريع علمية معاصرة ، كما في كتب «علي محيي الدين القره داغي» ، و«روجي أرنلديز» «إسرائيل ولفنسون» التي توقفنا عندها شواهد تُعتبر من الناحية المنهجية - كما المعرفية - تعبيرًا عن النزعة المعاصرة لمقاربة العلاقة بين المنتسبين إلى الأديان عمومًا ، والأديان السماوية خصوصًا ، تلك النزعة التي أصبحت تراهن على التمكين لثقافة المدافعة الهادئة والتعايش ، والتحاور ، والبحث عن المشتركات على قاعدة الوعاء العام الجامع ، وهو وعاء الإنسانية.

خاتمة:

إن ما تتبعناه من تأطير نظري لإمكان تعايش كل «أنا» مع كل «آخر» بلغ بنا حدودًا فهمنا فيها إمكان تداخل حدود «الأنا» في مساحات يصير الآخر جزءًا من «الأنا» ، وصولًا إلى المساحة الرحبة للإنسانية التي هي «أنا» جمعية لكل الناس ، والمشاريع المعرفية الثلاثة التي عرضناها تدلُّ على إمكان الاشتغال على أرضية تجميعية منطلقاتها الأولى:

- الاعتراف بأن التعدد قدر الإنسان في هذه الحياة.
- تجاوز مقولات الإلغاء لاستحالتها ، وبالتالي لتسببها في دمار العالم. بانتشار ثقافة الكراهية والعداء بين «الأناوات» المتعددة.
- الاشتغال على إقامة مشاتل تنمو فيها ثقافة التعايش والتدبير للاختلاف ، وتوسيع مساحة الأنا المشتركة بتنمية ثقافة «المشترك الإنساني».

ومن ثم وجب محاصرة أطروحة الإلغاء التي يروِّجها التطرف اليميني بمجابهتها بمزيد مشاريعَ معرفية تؤسس بالمقابل لإشاعة ثقافة الاعتراف بالجوار ، كما تقنع بإمكان التدبير المعقلن للعلاقة بين مختلف المنتسبين للأديان ، على أرضية «الحوار الديني».

ولعل الذي يبدو لي ملامح نظرية موجهة للمشاريع المعرفية القادمة في الحوار الديني بين مختلف المنتسبين للأديان ، وجب التركيز على مجموعة نقاط نجملها في ما يبدو لنا في ما يلي:

أ- فاعلية الإنسان في هذا الحوار؛ إذ المقصود من الحوار أصلًا تدليل العقبات التي تحول بين الناس وبين خلق فضاءات للتعايش ، في عالم - قدرهم أن يعيشوا فيه جنبًا إلى جنب - ولن

تتحقق هذه المقاصد إلا بإرادة قوية تدعمها فاعلية أقوى لخلق عالم مسالمٍ تحُلُّ فيه ثقافة الحوار والمسالمة عوض ثقافة الصراع والنفي والإلغاء.

ب- نسبية الأفكار التي يحملها أتباع الأديان سواء إلى مجامع الحوار الأكاديمي العالم ، أو تلك التي تؤطر العلاقات الاجتماعية بينهم؛ لأن الحوار يمارسه أفراد تتعدد أفهامهم وتختلف ثقافاتهم ومؤهلاتهم ، بل وتتنوع بيئاتهم التي ينحدرون منها ، وهذا كله يشكل قاعدةَ معطيات مركزية **لدهنيات** متنوعة تغترف من النصوص الأصلية للأديان وتصبغ هذه **الدهنيات** بطابع خاص.

ت- دعم مسار الحوار؛ إذ حين تتبين فكرة فاعلية الإنسان ونسبية الأفكار هذه ، يصبح ممكنًا مع هذا الفهم الحفاظُ على جوهر فلسفة الحوار ، هذا الجوهر الذي يتبين لنا من مقتضيات التعريفات اللغوية والشرعية والاصطلاحية للحوار ، إذ إن التردد والمراجعة والمجاوبة بين أطراف من المنتسبين للأديان يقتضي أن يأخذ كلٌّ واحد سلوكات وأقوال غيره ، على محمل أنها تعبر عن قاعدة المعطيات المركزية التي تشكل وجهةَ نظره أو طريقةَ عيشه الخاصة؛ الأمر الذي يُتاح معه عدم إغلاق الباب أمام الحوار ، بل يشجع على استمراريته عبر البحث الدؤوب عن وجهات النظر ، أو عن التجارب التي تساهم في خلق أرقى أشكال التعاون والتعايش.

لائحة المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.

الكتب:

٢- المسلمون والغرب من الصراع إلى الحوار ، بروفسور هانس كوكلر ، ترجمة دكتور حميد لشهب ، منشورات TOP EDITION ، الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ/٢٠٠٩م.

٣- نقد الليبرالية ، الطيب بوعزة ، تنوير للنشر والإعلام ، القاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠١٣م/١٤٣٥هـ.

٤- اليهود واليهودية وطأة ٣٠٠٠ عام ، إسرائيل شحاك ، تقديم إدوارد سعيد ، وغور فيدال ، نشر: الملتقى ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣.

٥- هنتنكتون ، صمويل ، «صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي» ، ترجمة د. مالك عبيد أبو شهيوة ود. محمود محمد خلف ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، الطبعة الأولى ١٩٩٩ميلادية.

٦- الغلو في الدين المظاهر والأسباب ، أبو زيد المقرئ الإدريسي ، منشورات الزمن ، الكتاب التاسع والعشرون ، الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

٧- نحن والآخر: دراسة فقهية تأصيلية ، علي محيي الدين القره داغي ، سلسلة قضايا الأمة ، منشورات «الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين» ، بدون تاريخ ولا رقم طبعة.

٨- ثلاثة رسل لإله واحد ، روجي أرنالديز ، ترجمة: سعدي رشيد. نشر: إفريقيا الشرق ، طبعة ٢٠١٢م.

٩- تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، د. إسرائيل ولفنسون ، مكتبة النافذة ، الطبعة الأولى: ٢٠٠٦م.

المجلات:

١٠- مجلة المنتدى ، العدد الأول ، ربيع ٢٠١٥م.

١١- مجلة وجهات نظر المصرية ، العدد ٨٦ ، بتاريخ مارس ٢٠٠٦م.

١٢- مجلة التسامح عدد ٢٦ ربيع ١٤٣٠ هـ /٢٠٠٩م.

المواقع الإلكترونية:

١٣- موقع جريدة الجمهورية السورية الإلكترونية http://aljumhuriya.net.

١٤- موقع وكالة فلسطين الإخبارية https://paltoday.ps/ar/

١٥- موقع جريدة الرياض السعودية http://www.alriyadh.com

مركز نهوض
للدراسات والنشر
NOUHOUD CENTER
FOR STUDIES
AND PUBLICATIONS

All rights reserved © 2018

جميع الحقوق محفوظة © ٢٠١٨